

دُحَّان

للاستاذ عماد الدين عبد الحميد

اعقق القصص مصلحة الآثر

لم يكن موضوع الفقر والغنى ، أو العجز والمقدرة في يوم من الأيام حقيقيا بأن يكون محل اهتمام الناس ، وجديرا بأن يكون مثار انتباههم في هذا البلد ؛ كما هو في هذه الأيام . وقد يتألم اليوم بعض من الناس عطف على جمهور الفقراء ؛ ولكني لم أجد أناس لهم ، بقدر ما أصبحت أرتاح لأن يقامى الفقراء كثيرا ، وأن يتألم بعض من الناس لما يقامى الفقراء !

ولا أرى غرابة في هذا ؛ فالإنسان بصبغه لا يفكر في حاله بين المجموع الذي يعيش فيه إلا عند ما تدفعه هذه الحال دفعا إلى أن يهتم بأمرها وأن يفكر فيها . وهكذا الفقراء ، وهم بشر كسائر البشر ، لا تدفعهم حالهم إلى التفكير فيها ، والانتباه إليها ، والاهتمام بأمرها ، إلا عندما تقسو عليهم الظروف قسوتها الكبرى ، وتشهرهم إشعارا لا شك فيه ، بأنهم فقراء ... وأنهم محرومون .. وأنهم عاجزون عن الحصول على ضرورات الحياة !

•

ولم يعد هؤلاء الفقراء يفكرون في أن حالهم التي قسمت لهم كانت نصيبا طبيعيا مفروضا بحكم الزمان... وإنما أصبحوا يفكرون في أنها حال فرضت عليهم فرصا ، وأن ندين فرضوها ليسوا غير بشر خلقوا خلقهم ، فلم مالم من حقوق ، وعليه ما عليهم من واجبات ، أمام القانون وأمام السماء .. غير أنه تفرق بين هؤلاء وأولئك ميزة الغنى والمقدرة ، التي أصبح الناس يفتقدون بتقدم الأيام أنها ليست ميزة طبيعية حائصة وإنما هي كذالك من فعل بعض الناس . والفقراء لا يفكرون في أن بعض الناس قد امتاز هذه الميزة بجمته وكفاحه ، وإنما يفكرون في أن هذا البعض امتاز هذه الميزة بطرق شتى لا ترجع إلى الكفاية .

ومن الطبيعي أن يقسم الناس إلى درجات - وهذا من تركيب الكون وناموس الطبيعة ولكني لا أفهم معنى لأن تكون إحدى هذه الدرجات عاجزة عن الحصول على

فاندرجات التي فرضتها انحفة البشرية يمكن أن توجد ، ولكن يلزم أن يكون ،
أقلها المقدرة على أن ينال كل فرد طعاما وكساء ومأوى ، وأن يبدو بين الكائنات
البشرية كبشر لا كحيوان .



هكذا يفكر الس ليوم ، ويبدو تفكيرهم فيما يتحدثون به بعضهم إلى بعض آخر ويبدو
جليا في تحدثت به الصحافة وهي مرآة الرأي العام فوأن أحدنا قرأ جميع لصحف يومية
الصادرة في يوم واحد ، أو جميع المجلات الأسبوعية الصادرة في أسبوع واحد ، لراها غائبا
تحدثت عن الفقر والغنى ، وعن العجز والمقدرة .

تسلم الصحف جميعا عن هذا ، ولكنها تدور حوله كأنما تتحاشى أن تقول كلمة حق
واجبة . ولكني أعتقد أن قول هذه الكلمة اليوم ، والتنبيه إليها الآن ، خير ألف مرة
ومرة من الانتظار يوما آخر أو بعض يوم .

والنطق بالملكى الكريم ، الذي تفضل به صاحب الجلالة إلى اللجنة البرلمانية في البرلمان
السابق ؛ إنما هو نطق صادر عن حكمة وصحة تبصر بمخاتق الأمور . وقد أشر جلالته إلى
جوهر هذه الحقيقة في مواضع ثلاثة من نطقه الكريم .

بجلالته — حفظه الله — يقول : ” إن العمل الذي أمامكم في هذه الدورة كبير
خصوصا المشروعات التي تتعلق بالترفيه عن الفلاح والفقير ، فالفلاح والفقير إذا قد أصبحا
في حالة تستوجب أن يعمل الحكام ليرفها عنهما .

وجلالته يقول : ” يهمني أن تتعاونوا مع الوزارة لمعالجة هذا الموضوع ، فلا يبقى فقير
يشكو من الجوع ، ولا محتاج يطلب القوت ” . في مصر إذا فقراء يشكون من الجوع ،
ومحتاجون يطلبون القوت ... الآن ، في القرن العشرين ، وفي عصر المدنية والور !

ويقول جلالته : ” إن عمل الحكومة وحدها في ذلك لا يكفي ، بل يجب على كل
مالك ، كبيرا كان أو صغيرا ، أن يهتم بمعونة الفقير ” . هناك إذا أيضا ملك كبار وصغار ،
في استطاعتهم أن يباونوا الفقير الذي يشكو من الجوع ، والمحتاج الذي يطلب القوت ،
في استطاعتهم هذا ، وهو من واجبهم ، لكنهم لا يفعلون .

وإننا نستطيع أن نتبين أن في هذا الوطن درجات من الناس لا في المقدرة ، وإنما
في العجز والحرمان . ونستطيع أن نتبين أن العلاج لهذا التعاون يتلخص في ألا يبقى فقير يشكو
من الجوع ، ولا محتاج يطلب القوت . ثم نستطيع أن نتبين أن هذا العلاج واجب على
الحكومة ، وهو واجب على الأغنياء .

الحياة الهادئة المستقرة حق لكل أحد في هذا البلد ، يصمها للفقراء معاونة الأغنياء للحكومة ، كما قال صاحب الجلالة . فإذا يلزم عمله إذا قصر هؤلاء الأغنياء أو ترددوا في إجابة هذا الداء ؟

يلزم أن تنفذ الحكومة هذا الإصلاح بالتشريع . وفي استطاعتها — ومن حقها — أن تصحح هذا التعاون في الثروات ، بطريق الضريبة التدريجية . وهي طريق مشروعة ومعمول بها في الدول الديمقراطية . على أن تكون ضريبة كافية ومناسبة ، وأن يخصص الدخل منها لإصلاح حال هذه الطبقات الفقيرة ، ورفع مستوى معيشتها بين الناس .

هذا هو الحل العملي لقانوني المشروع لقصة "أغنياء وفقراء" فليتعاون البرلمان مع الحكومة في التعجيل بإصدار تشريع يحقق تنفيذ هذا الإصلاح أو يعرضوا ما لديهم من حلول .

هذه هي الحقيقة التي تدور حولها مقالات الصحف ، ولكنها تخشى أن تطرقها طريقة مباشرة رأيت من اخیر أن تعلن صراحة للناس ، وقد جعلها صاحب الجلالة في غير حاجة إلى بيان .

فليضع المسئولون في هذا البلد أمام أعينهم هذه الحقيقة ، وليذكروا أن قضية الفقراء معناها قضية جميع العمال البلياع وأسراتهم ، وجميع الفلاحين العرايا وأسراتهم ، والطلاب العاجزين عن دفع نفقات التعليم ، والمرضى العاجزين عن الحصول على ثمن دواء أو محل في مستشفى للملاج . وهي أيضا قضية أسر صغار الموظفين ، وهم عجلات الآلة الحكومية ، وقضية المعلمين الإلزاميين وهم عشرات الألوف في جميع أنحاء البلاد ، يسيطرون على تنشئة أبناء الشعب لمستقبل الأجيال ، وهي قضية أسرات جنود جيش الوطن .

كل هؤلاء فقراء ، هذه قضيتهم ، وهي قضية غير هؤلاء ، وأولئك من العاجزين ، هي قضية أربعة عشر مليونا من المصريين ، ولو تبصرنا الحقيقة لوجدناها أخيرا قضية جميع المصريين .



إنني أنظر خيوط الدخان التي كانت تتصاعد في الماضي من مثل هذا الحديث ، وقد تراكت ، وتراكت ، فإذا هي اليوم سحب كثيفة ، يبدو لي أنها تحجب وراءها أمرا خطيرا . فلتدبر الأمر ، حديا وعمليا وفي أقرب وقت ، قبل أن نقف مهوتين أمام هذا الأمر الخطير !